عرض وتحليل

هكذا أغنى

للشاعر محمود حسن اسماعيل

بقلم الأستاذ اسماعيل كامل

عند ما أخرج الشاعر الأديب محمود حسن اسماعيل ديوانه (أغاني الكوخ) وكان لي حظ الاشتراك في حفلة تكريمه كان أهم ما دارت حوله كلمتي التكريمية أن الشاعر صادق الحس مشبوب العاطفة قوي الايمان ينتزع الأخيلة من أطواء وجدانه في غير افتعال أو تعمل، وأنه يمثل الربق المؤمن الصادق الأحاسيس الذي يقبس من جلال المناظر الطبيعية خير ما تحتاج به نفسه الجياشة بحب كل ما هو طبيعي لا أثر للصنعة الزائفة فيه

وأخيراً جاء ديوانه الثاني (هكذا أغني) صورة صادقة تؤيد ما ذهبت إليه في كلمتي الأولى وتعزز تلك النظرة الصائبة التي لم تخب فيما خرجت به من دراسة شاعر الشباب النابغة

وأنا في هذا البحث العاجل أحب أن أنتزع من الديوان الأخير صوراً فاتنة تؤيد ما ذهبت إليه يوم قام الأدباء من الشباب يحتفلون بذلك القبس الباهر الذي كشف عن درر الشاعر الفذ ميزة تفرد بها الشاعر محمود ولم يجر فيها على منوال كثير من شعراء كل مناسبة يأتي من ورائها الغنم والفائدة! تلك ميزة الوفاء لنفسه والاخلاص لمشاعره والاعتداد بشعره؛ فلم يكن يوماً بوقاً للظروف أو أداة للملابسات، بل ظل الشاعر الرفيع الاحساس المترفع بشعره أن يتلمس جوانب النفع ووجوه الاستغلال أينما ساقتهما الأقدار أو دفعت بهما الرياح

وفي ذلك يقول الشاعر لمليكه:

للشـــاعرين بلاغة فضفاضة ... حشدت بلفظ في الخلوق بجلجل
وأنا الذي شعري نفاثة مهجتي ... سكبت جداولها بهمس السلسل
يوم الفخار سنلتقي ... أنت العلا
وأنا الصدى في ظل عرشك! فاصغ لي

أنظر إلى محمود الشاعر الربق الذي يلوذ بأذيال الخمائل يقتطف منها شذا الزهور، ولحون الطير، ونور الصباح، وعبير الضحى، لتعينه على الهتاف للمليك إن عاونته تلك العوامل كلها على أن ينتعي لبلابل الخلد السواجع

وانظر إلى ذلك الشادي من أين يقبس قريضه.. من الطبيعة الوارفة ومن الإيمان الصادق:

شاديك من قصب الفراديس نايهُ ... ومن السنا والطيب عُل عناؤه
ومن الصَّبا نهلت حلال أراكه ... سجواء، ناجيها غفت أنداؤه
ومن الطفاوة في أصيل خاشع ... سجدت على زهر الربا أضواؤه
ومن المساجد هيمت تحت الدجى ... سوفيُّها نهل الغيوبَ صفاؤه
ومن الشماع المستهام بقبلة ... في النيل طهرها هواه وماؤه
ومن السنا الزقراق في قدح الضحى
أخرى النـــديم قولولت صهباؤه

وشاعرنا كثير التيرم بالقلوب الغوادر وما جبل عليه الناس من فضول وتهاتر، ولكنه يرتد ساخراً هازئاً لاعتداده بنفسه، وعرفانه بقيمته ويفيض من حنانه على (الغراب) قسيمه في الحظوظ وصاحبه في الجدود وقرينه في تحامل الناس الظالم دون إثم يبرره:

على قدم المساواة مع اللغات الأجنبية لا في امتحانات البكالوريا والليسانس فقط بل في امتحانات المدارس العسكرية كمدرسة سان سير وغيرها

والأهمية المتزايدة لأفريقيا الشمالية في الاقتصاد والدفاع الوطني وحاجة فرنسا لأن تنشئ معها علاقات تزداد توثقا مع الزمن، كل ذلك يعد من الأسباب التي تبرر التدابير التي اتخذتها وزارة التربية

وأنت — كمثلي — هارب من فضولهم
جوابك للأكران : إني ساخر !
فدعهم يلوكون الحديث ، وأصغ لي
فما منهم للسمع إلا النهاتر
سلاماً قسيمي الحظوظ .. وصاحبي
وقد أرخصت عهدي القلوب النوادر
عشقتك منذ النخل مد ظلاله
عليّ تفاديني وبه وتباكر

ويكاد يتفرد الشاعر محمود بقوته المادرة وفتوته الفائرة في كل ما يقرض من النظم حتى حين يتحدث إلى موسيقى النقوش

ابغي اللحن يدوّي كيفما شئت وساء
لن ترى في الأرض سمعاً يشتهي هذا الفناء
غير سجعي فهو من دنـ ـياه في دنيا فناء

لكنه كغيره من الشباب إذا أحب وعف واعترضت العقبات سبيله راح يتفجع ويتوجع وإن كان لا يسف إلى درك التوسل والاستعطاف، بل يهدد ويتوعد.. يهدد بالجنون والانتحار والفناء

وانظري جذوة الهوى في خيالي وشحوب الفناء في نظراتي
وتهاويل من بقايا جنون خلفتها الأحزان فوق سماتي
وبريقاً من الشباب المولى كهشيم الريحان فوق الرفات
منية أزهقت وأخرى تعايا والبقايا في الصدر منتحرات

* * *

أسرعي قبلما تغيب الأماني في دخان الهموم والحسرات
وتصيرين في الهوى قصة الخلـ ـد وأسطورة على نغماتي
أسرعي قبل أن تموت الأغاني فتناجيك ، بعدها مرثياتي !

وما أحسب الشاعر ينتوي ما يهدد به ولكنه يتوعد حبيبه بشر ما ترتاع له النفوس حتى ينطلق من محبسه ويثور على أغلاله وإلا ما قال بعدئذ :

حجبوك عن نظري وخلوا مهجة حيرى يجرعها الهوى أتراحه
وأنا الذي سأظل باسمك هاتفاً حتى يمد الموت نحوي راحه !

* * *

حجبوك هل حجبوا نفاثة عاشق أضرى الغرام جلاده وكفاحه ؟
متولع بهواك ما أغرى به بينٌ ولا خلٌ الفراق سلاحه

وهو ليس دائم الشكوى والنواح بل طالما ركن إلى الصمت القاتل وكبت مشاعره حتى لا يستذله الضعف وبعد أن صدف الناس عن الشكوى وتغافلوا عن الشاكين :

والناس .. لاناس إذا خلجت عيني .. كأني في الحياة هم
صدقوا عن الشكوى فلا أذن تصغي لما رتلت من نغم
حسبوا أنين القلب فلسفة عبثت بها أنشودة القلم
فتغافلوا عني ولو علموا شربوا صباب الدمع من ألمي

أنت عاتبتي على الصمت . . . فاسمع
نغمات الجراح تحت الجنوب
أنا همس يموت في قلب ناي نبذته الرياح خلف الكثيب
أنا صمت الكهوف يهتز للوحي إذا هل في السكون الرهيب

* * *

وقصاري مايقال في شاعرنا الفذ أنه ينتزع مادته في جميع الاتجاهات والأبعاد من الطبيعة الساحرة في صمتها وشجوها وتغريدها لا من التأثر الدرامي أو الاطلاع الفردي وحدهما ، بل إنني كنت مع بعض الواهمين قبل أن أعرفه في أنه قد قبس كثيراً من معانيه البكر من شعراء الفرنجة الطبيعيين أمثال وردزورث وشيلي وبيرون .

وشاعرنا قد جمع في وثبته بين القديم والجديد : فهو يمثل جزالة الشعر العربي الرصين وقوة أسلوبه ومتانة بنائه، كما يمثل الجديد في سلاسة معانيه، وطرافة موضوعاته وحداثة مراميه، فكان وسطاً حبيباً بين الهدين ، وروحاً فياضة بين الجيلين وعلماً فرداً في توسط الاتجاهين .

وهو نسيج وحده في أغلب الموضوعات التي يطرقها لا يشبهه فيها شاعر اللهم إلا في الموضوعات الاجتماعية التي يظهر فيها تأثير البيئة الواحدة في جميع الأقلام ، وفي هذا يمثل الشاعر بيئته ومايشتمل في أطوائها ومايشيع في أجوائها خير تمثيل .

وقبل أن أختتم كلمتي العاجلة أود أن ألمس المدى الذي بلغه الشاعر في ديوانه الأخير والخطوة الواسعة التي خطاها في أغانيه الأخيرة بعد أن انقضت أعوام ثلاثة على ديوانه الأول (أغاني الكوخ)

إن من قرأ للشاعر في ديوانه الأول حديثه الفطري عن (حاملة الجرة) ثم يقرأ قصيدة الرائعة عن (الغراب) في ديوانه الأخير يلمس عمق التأمل وغور الاستيعاب الوافدين على شعره الجديد وقد أضفيا على قريضه القوة والمضاء. كذلك يلمس القارئ في ديوان الشاعر الأخير مدى توسعه في الموضوعات الاجتماعية وشبوب عاطفته في الناحية الغزلية ، وذلك الطهر الذي يهيمن على مشاعره

وليس ثمة ما أعيبه على الشاعر غير تلك الرهبنة وذلك المذهب الكنسي الذي يصبغ أكثر قصائده ، ولكن العارف للشرف على